

الميتافيزيقا كسؤال متجدد

قراءة في المفهوم من أفلاطون إلى هيدغر

Metaphysics as a Renewed Question: A Reading of the Concept from Plato to Heidegger

عياط فايزة

faiza.ayat@univ-mascara.dz

جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر،

تاريخ الإرسال: 2025 / 07 / 06 ؛ تاريخ القبول: 2025/09 / 09

الملخص باللغة العربية:

ينطلق البحث في طبيعة الميتافيزيقا من ضرورة معرفية ومنهجية تستدعي توضيح المصطلح لغوياً واصطلاحياً، مع استكشاف دلالاته التاريخية. يمثل تحديد مفهوم الميتافيزيقا تحدياً بسبب تراكم التأويلات الفلسفية المختلفة، كما أشار كانط بوصفه "ملتقى الأحكام".

لا يهدف البحث إلى استعراض تاريخي بحت، بل إلى عزل دلالات المفهوم الأساسية عبر اختيار انتقائي للمعاني، مما يسمح بفهم أعمق لعلاقته بالوجود والكينونة. فالأسئلة الميتافيزيقية تتقاطع مع القضايا الوجودية وأسس المعرفة، مما يجعلها ساحة لحوار فكري متجدد.

يتطلب التعامل مع المصطلح منهجاً انتقائياً لا يُهمل غناه التاريخي، بل يسعى إلى إعادة صياغته بما يتلاءم مع التحديات الفكرية المعاصرة. فهل يمكن تحقيق فهم جديد للميتافيزيقا بعيداً عن تعقيد التأويلات المتراكمة، أم أن إعادة تعريفها تظل مهمة مفتوحة على آفاق متعددة؟

الكلمات المفتاحية:

الميتافيزيقا؛ هيدغر؛ التأويل؛ الوجود؛ الأنطولوجيا

Abstract: The inquiry into the nature of metaphysics arises from a methodological and epistemological necessity, requiring a clarification of the term both linguistically and conceptually while exploring its historical meanings. Defining metaphysics is challenging due to the accumulation of diverse philosophical interpretations, as Kant described it as a "convergence of judgments."

Rather than providing a purely historical overview, this study seeks to isolate the essential meanings of the term through a selective approach, enabling a deeper understanding of its relation to existence and being. Metaphysical questions intersect with existential inquiries and the foundations of knowledge, making metaphysics a dynamic arena for intellectual discourse.

Engaging with the term demands a selective methodology that does not disregard its historical richness

but aims to reinterpret it in light of contemporary intellectual challenges. Can we attain a renewed understanding of metaphysics beyond its complex web of interpretations, or does its redefinition remain an open-ended endeavor?

Keywords: Metaphysics; Heidegger; Interpretation ;
Existence; Ontology

مقدمة:

تتضح أهمية الميتافيزيقا كمجال فلسفي يتطلب دراسة عميقة للمسائل الجوهرية التي تتعلق الوجود والكيونة. إذ يشكل تساؤل الميتافيزيقا نقطة التقاء بين عدة تيارات فكرية، تجمع بين الأسئلة الوجودية والبحث عن أسس المعرفة، مما يجعلها مسرحاً لتلاقي الآراء والرؤى المتباينة. ومن هذا المنطلق، يصبح من الضروري النظر إلى الميتافيزيقا كعملية تأملية منهجية تُعنى بتفكيك وبناء المفاهيم التي تساهم في فهم العلاقة بين الكيان والوجود، في ظل تنوع وتعددية التأويلات التي مر بها عبر التاريخ.

ومن جهة أخرى، يتطلب التعامل مع مصطلح "الميتافيزيقا" اتباع منهج انتقائي يهدف إلى عزل الحمولة الدلالية الجوهرية التي يحملها، بعيداً عن زخم السياقات التاريخية والفلسفية المتعددة التي أضافت إليه معانٍ وتفسيرات مختلفة. وهذا الاختيار الانتقائي لا يعني التقليل

من ثراء المفهوم أو تجاهل أبعاده التاريخية، بل هو محاولة لإعادة صياغة المسألة بما يتناسب مع التحديات الفكرية الراهنة، ويساهم في تقديم رؤية شاملة تتماشى مع التطورات المعاصرة في الفكر الفلسفي. بالتالي، يسعى هذا البحث إلى بناء إطار مفاهيمي يتيح التفاعل البناء مع الميتافيزيقا، مع مراعاة التنوع والعمق الذي يميزها في مضمار الحوار المعرفي.

فهل بالإمكان إعادة صياغة هذا النسيج الدلالي المتعدد للوصول إلى فهمٍ جديد يعكس جوهر الميتافيزيقا، أم أن تداخل التأويلات يجعل من هذا المسعى تحدياً لا ينتهي؟ وكيف يمكننا فهم الميتافيزيقا بشكل دقيق وسط تعدد معانيها وتاريخها الطويل؟ وهل نستطيع إعادة صياغة هذا المفهوم بطريقة تبرز معناه الحقيقي؟

1- مفهوم الميتافيزيقا

أ) من حيث اللفظ:

تستند تعريفات الموسوعات والمعاجم لمصطلح "ميتافيزيقا" إلى الأصل الاصطلاحي للمصطلح اليوناني *Meta ta physika* هذا التعبير، الذي صاغه أندرونيكوس الرودسي في القرن الأول قبل الميلاد، أستخدم لتصنيف مجموعة من مقالات أرسطو التي جاءت في مرتبة تالية لتلك المسماة بـ "فيزيقا" (Heidegger .M, 1953 : 66). إذ يُنظر إلى هذه المجموعة على أنها ما يتبع أو "ما بعد" المباحث الطبيعية، وهو إجراء

ترتيبي تصنيفي وقع بشكل عرضي (During E,1998 : 27) دون أن يُستلهم منه مضمون المعرفة التي ينطوي عليها البحث. ومن الجدير بالذكر أن هذا الاصطلاح لم يكن في أصله دالا على مادة علمية بحتة، بل كان مجرد وسيلة لتنظيم وترتيب مجموعة من الكتابات التي لم تكن تُعرف بمسمى "الميتافيزيقا" في زمن أرسطو. من المؤكد أن أرسطو نفسه لم يختار هذا العنوان لكتابه، خلافاً للتصورات اللاحقة مثلما افترض الفارابي حين أشار إلى أن "أرسطو" قد تناول الموجودات بأسلوب يتجاوز النهج الطبيعي، يقول الفارابي ما نصه: "فذلك شرع أرسطو طاليس في كتاب سماه (ما بعد الطبيعة)، ينظر ويفحص في الموجودات بوجه غير النظر الطبيعي" (الفارابي، 1961: 132).

(ب) من حيث الاصطلاح:

اكتسب مصطلح "الميتافيزيقا" عبر التاريخ دلالات متعددة، وذلك نتيجة اختلاف تأويلات الباحثين لمفهوم ميتا، حيث تراوحت هذه التأويلات بين اعتباره مجرد تصنيف لأعمال أرسطو، وبين النظر إليه كحقل معرفي مستقل يعنى بدراسة نوع خاص من الوجود يتجاوز نطاق العلوم الأخرى. وبهذا، يمكن فهم الميتافيزيقا وفق ثلاثة اتجاهات رئيسية:

أولاً: الميتافيزيقا كعلم بالموجودات غير المحسوسة

يرى هذا التصور أن الميتافيزيقا تتناول الكيانات التي لا تدركها الحواس، والتي تقع خارج نطاق التجربة الحسية، مثل الإله، النفس، والعالم بوصفه كياناً كلياً. هذا ما ذهب إليه ديكرت حين أكد أن "غاية الفلسفة الأولى أو علم ما بعد الطبيعة هي معرفة الله والنفس". كما تبين توما الأكويني هذا المنظور، معتبراً أن الميتافيزيقا هي العلم الذي يكشف عما هو فوق الطبيعة، حيث تتمحور دراستها حول المفاهيم الإلهية، المحرك الأول، الغاية النهائية، وخلود النفس. (جميل صليبا، 1982: 301) ومن هذا المنطلق، تبدو الميتافيزيقا وكأنها علم يسبر أغوار المطلق والمقدس، متجاوزة حدود الإدراك الحسي والتجربة المباشرة.

ثانياً: الميتافيزيقا كبحت في جوهر الوجود

وفق هذا التصور، لا تقتصر الميتافيزيقا على دراسة الموجودات غير المحسوسة، بل تهدف إلى الكشف عن الجوهر الثابت الكامن خلف الظواهر المتغيرة. فالوجود ليس مجرد مجموع أشياء متفرقة تخضع للتغير، بل هو كيان ذو بنية جوهرية ثابتة. ومن هنا، تصبح الميتافيزيقا بحثاً في الوجود من حيث هو وجود، دون الالتفات إلى تجلياته العرضية التي تتبدل باستمرار (عبدو الحلو، 1994: 104).

ثالثاً: الميتافيزيقا كعلم بالوجود المثالي

يرى هذا الاتجاه أن الميتافيزيقا لا تهتم فقط بوصف الواقع، بل تسعى إلى الكشف عن ما يجب أن يكون، أي عن الوجود المثالي الذي لا يكتفي بتجاوز العالم الحسي، بل يفسر أبعاده وأسبابه النهائية. فهذا

الوجود ليس أرقى من الوجود الواقعي لمجرد كونه متعالٍ عليه، بل لأنه يمنحه المعنى ويكشف عن علله العميقة. (جميل صليبا، 1982: 302) وهكذا، تبرز الميتافيزيقا بوصفها مجالا فلسفيا متشعبا، تتقاطع فيه قضايا الوجود، الجوهر، والقيم المطلقة، مما يجعلها نقطة التقاء رئيسية بين الفكر التأملي والرؤية الكونية الشاملة.

2- الميتافيزيقا: جوهر الوجود ومشكلته الفلسفية

العلم الذي اصطلح شراح أرسطو لاحقا على تسميته بـ"الميتافيزيقا"، كان في جوهره بحثا في الوجود بما هو وجود، أي دراسة الكينونة في ذاتها، وليس كما تفعل العلوم الجزئية التي تقتصر على تحليل جوانب محددة من الوجود دون سبر أغوار كليته. ففي المقالة الرابعة من كتاب "ما بعد الطبيعة"، يؤكد أرسطو أن هناك علما نظريا يتناول الوجود في كليته، ويفحص المبادئ والعلل القصوى التي تشكل أساس كل موجود. بخلاف العلوم الجزئية، التي تهتم بجوانب محددة من الواقع، تسعى الميتافيزيقا إلى بلوغ الكل، لتلامس الأصول الجوهرية التي تمنح الوجود معناه الحقيقي. (ابن رشد، 1997: 297).

بهذا المفهوم، تتجلى الميتافيزيقا كعلم يعنى بالوجود بما هو موجود، سواء أكان ذلك يشير إلى الموجود الأول، الذي هو مبدأ كل الأشياء، أم إلى الوجود كصفة شاملة تتقاسمها جميع الكيانات. ومن هنا، يتضح أن الميتافيزيقا تتناول قضايا لا يمكن للعلوم التجريبية أن تحيط بها، لا لأنها تفتقر إلى الدقة، ولكن لأن مواضيعها تتجاوز نطاق

البحث العلمي القائم على المشاهدة والتجربة. فالعلم يبحث في الظواهر القابلة للرصد والقياس، بينما تذهب الميتافيزيقا إلى ما وراء هذه الظواهر، ساعية إلى كشف الأسس التي يقوم عليها الوجود ذاته. إن المشكلة المحورية التي تنشغل بها الميتافيزيقا هي مشكلة "الوجود"، فلا تهتم بأي موضوع إلا بقدر ما يكون متضمناً لهذا البعد الجوهري. سواء كان موضوع البحث مادياً أو غير مادي، ملموساً أو مجرداً، فإن ما يجعل منه إشكالية ميتافيزيقية هو حمله لصفة الوجود في ذاته. فالوجود في بعده المجرد والمطلق هو ميدان البحث الميتافيزيقي، وهو القاعدة التي تُبنى عليها كل إمكانات الفهم والتصور حول العالم والكائنات. بهذا، لا تكون الميتافيزيقا مجرد تأمل نظري، بل هي بحث في الأصول التي تجعل من الوجود ممكناً ومفهوماً، وهي بذلك تظل ميداناً فلسفياً لا غنى عنه لكل من يسعى إلى تجاوز السطحي والعابر إلى العميق والجوهري.

أ- الميتافيزيقا في الفلسفة اليونانية: البحث عن الوجود في دهشة الفيلسوف

ظلت الميتافيزيقا عبر العصور محور التساؤل الفلسفي العميق، إذ تسعى للكشف عن ماهية الوجود (Essence de l'être)، تلك الإشكالية التي شكلت نقطة انطلاق التفكير الفلسفي منذ بداياته. فالوجود لم يكن مجرد موضوع نظري، بل كان بالنسبة للفلاسفة الأوائل لغزاً مثيراً للدهشة، وهذه الدهشة، كما يؤكد أفلاطون في

محاورة "تييتاتوس" (Théétète)، هي الأصل الجوهرى للفلسفة. إذ يرى أن الانهار بالموجودات وسرها العميق هو ما يدفع الإنسان إلى التفلسف، قائلاً: "إنه لأمر يخص الفيلسوف، هذا الذي نسميه باثوس (πάθος)، أي الدهشة، إذ ليس هناك انطلاق للفلسفة سوى هذه الدهشة". (هيدغر، 2001: 119).

هذه الفكرة لم تبقَ حكراً على الفلاسفة القدماء، بل استعادها الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر (Heidegger) في محاضراته الشهيرة "ما الفلسفة؟" عام 1955، حيث شدد على أن أولى التساؤلات الفلسفية التي أدهشت اليونانيين كانت إدراكهم أن "الموجود يوجد"، (Heidegger M, 1968: 32) وهي حقيقة تبدو بديهية بل وحتى مبتذلة للعقل العادي، لكنها بالنسبة للتفكير الفلسفي تمثل انكشافاً ميتافيزيقياً يطرح سؤالاً جوهرياً عن الوجود ذاته. يؤكد هيدغر أن هذه الحقيقة، التي تبدو غير جديرة بالتأمل لأول وهلة، هي التي أوقعت الفلاسفة الإغريق في حالة من الدهشة والذهول، لأنهم أدركوا أن الوجود ليس مجرد معطى، بل هو سر يستدعي التفكير العميق.

ومن هنا، فإن الميتافيزيقا في أصلها الإغريقي لم تكن مجرد تنظير حول الأشياء، بل كانت مواجهة مباشرة مع لغز الوجود، حيث تساءل الفلاسفة عن ماهيته، أسبابه، وكيف يمكن إدراكه. فالدهشة التي أدهشت طاليس حين تساءل عن أصل الأشياء، والتي دفعت أفلاطون وأرسطو للبحث عن المبادئ الأولى، هي ذاتها الدهشة التي ما زالت ترافق

التفكير الفلسفي إلى اليوم، مما يجعل الميتافيزيقا نشاطاً إنسانياً خالداً، يتجدد باستمرار مع كل محاولة لفهم حقيقة الوجود في ذاته. شهدت المرحلة الكلاسيكية للفلسفة اليونانية (أفلاطون وأرسطو) ظهوراً واضحاً للميتافيزيقا، وذلك كنتيجة للتحويلات السياسية والعسكرية والاجتماعية التي عرفها المجتمع اليوناني آنذاك، مما أدى إلى تعميق التساؤل حول طبيعة الوجود وأصله. وفي هذا السياق، قدم كل من أفلاطون وأرسطو رؤيتين مختلفتين ولكن مترابطتين للميتافيزيقا، حيث أسهم كل منهما في إعادة صياغة مسألة الوجود بطريقة متميزة.

يعد أفلاطون (Platon)، ت: 348 ق.م أول من أقام تمييزاً جوهرياً بين الوجود والموجود، وهو تمييز لم يكن حاضراً بشكل واضح لدى مفكري ما قبل سقراط. (Les présocratiques) فقد رأى أن الوجود الحقيقي لا يكمن في العالم المادي المحسوس، بل في عالم أعلى وأكثر ثباتاً، أطلق عليه اسم "عالم المثل". فبالنسبة لأفلاطون، العالم المحسوس ليس إلا انعكاساً ناقصاً للعالم المعقول، حيث الأشياء المحسوسة ليست سوى نسخ زائلة للمثل الخالدة. ومن هنا نشأت الثنائية الميتافيزيقية الأولى: الوجود مقابل الموجود، التي تفرعت عنها عدة ثنائيات أخرى مثل الماهية مقابل المظهر، المعقول مقابل المحسوس، النموذج مقابل النسخة. (Heidegger, 1973 : 261)

هذا التصور منح الميتافيزيقا بعداً جديداً، حيث أصبحت تدرس الوجود في مستواه الأعلى، أي باعتباره نظاماً ثابتاً ومستقلاً عن العالم الحسي، ومن ثم فرض مفهوم الماهية (Essence) كأساس للحقيقة. واجه أرسطو هذا الإشكال بنقد جذري لفكرة الانفصال التام بين المعقول والمحسوس في فلسفة أستاذه أفلاطون. فقد رأى أن إرجاع الواقع المحسوس إلى عالم علوي مفارق لا يفسر نشأة الموجودات وتغيرها، ولذلك قام بإنزال المثل من "عالم السماء" إلى داخل الأشياء ذاتها، حيث لم يعد الجوهر موجوداً في عالم منفصل، بل أصبح متجسداً في الكائنات المحسوسة. ومن هنا، قدم أرسطو مفهوم "الجوهر الأول" (Ousia)، وهو الموجود الحقيقي الذي يتميز بذاته، بحيث تكون الميتافيزيقا علماً يبحث في هذا الجوهر من حيث وجوده (اميرة ح م، 1968: 273).

يرى أرسطو أن العلوم الأخرى، سواء كانت الفيزياء أو الرياضيات، تهتم بدراسة صفات الأشياء وعوارضها، أما الميتافيزيقا فهي العلم الذي يدرس الوجود بما هو موجود، أي أنها تبحث في المبادئ والعلل الأولى التي تفسر حقيقة الموجودات. وبهذا المعنى، فإن كل كائن له ماهية (Essence) تحدد طبيعته، وهي العلة التي تفسر جوهره، فمثلاً سقراط ليس مجرد فرد بشري، بل هو تجسد لماهية الإنسان. لم تكن الميتافيزيقا عند أرسطو مقتصرة على دراسة الوجود في مستواه الحسي فقط، بل تجاوزت ذلك إلى البحث في العلل القصوى

لوجود، مما أدى إلى ربطها بالإلهيات. (Théologie) فقد رأى أن هناك وجودًا خالداً وثابتاً، مستقلاً عن كل ما هو مادي ومحسوس، وهو ما جعله يُعرّف الميتافيزيقا بأنها العلم الذي يدرس هذا الوجود الأسْمَى. يقول في هذا السياق: "إن كان هناك ما هو خالد وثابت وموجود وجودًا مفارقًا، فينبغي أن يكون هذا موضوعًا لعلم نظري معين [...] فلا يمكن أن يكون هذا الموضوع إلا موضوع علم الإلهيات، وهو أعلى أقسام العلوم النظرية". (اميرة ح م، 1968: 274).

وهكذا، أصبحت الميتافيزيقا عند أرسطو لا تقتصر على دراسة الموجودات الطبيعية فحسب، بل تشمل أيضًا البحث في العلة النهائية للوجود، والتي تجسدها فكرة "المحرك الأول" أو "الله"، بوصفه الكائن الأسْمَى الذي لا يتحرك ولكنه يحرك كل شيء. (لاند، 1996: 790).

يمكن اعتبار أفلاطون وأرسطو المؤسسين الفعليين للميتافيزيقا الغربية، حيث قدّم الأول تصورًا ثنائيًا للعالم قائمًا على الفصل بين المثل والمحسوس، بينما سعى الثاني إلى ردم الهوة بينهما بإدماج المثل داخل الموجودات ذاتها. وإذا كانت فلسفة أفلاطون قد منحت الميتافيزيقا طابعًا نظريًا ومثاليًا، فإن فلسفة أرسطو سعت إلى جعلها أكثر واقعية ومرتبطة بالتجربة. ومع ذلك، ظل كلا الفيلسوفين مشغولين بنفس الإشكالية الجوهرية: ما طبيعة الوجود؟ وما علله الأولى؟

هذا التساؤل الميتافيزيقي الذي بدأ مع أفلاطون وأرسطو لم ينتهِ معهما، بل ظل محوراً للفكر الفلسفي على مر العصور، حيث حاول كل من فلاسفة العصر الوسيط، ثم فلاسفة الحداثة وما بعد الحداثة، تقديم إجابات جديدة له، مما يدل على أن الميتافيزيقا ليست مجرد مرحلة تاريخية، بل هي جوهر التفكير الفلسفي في ذاته.

ب- اللحظة الديكارتية: ميتافيزيقا الذاتية وتأسيس اليقين

إذا ما سعينا إلى تتبع الميتافيزيقا عبر تطورها التاريخي، فإننا سنجد لحظة مركزية تؤسس لبداية طور جديد في الفكر الفلسفي، هي اللحظة الديكارتية. يرى العديد من الفلاسفة، وعلى رأسهم هيدغر، أن هذه اللحظة تشكل استمراراً للميتافيزيقا في شكلها التقليدي، لكنها في ذات الوقت تدشن انطلاقة جديدة من خلال إعادة صياغة العلاقة بين الذات والوجود.

يُعرف ديكارت، في خطواته الأولى ضمن مشروعه الفلسفي، بالشك المنهجي، وهو شكٌّ لا يستهدف الحقيقة في ذاتها بقدر ما يسعى إلى غربة المعرفة، والاحتفاظ بما هو يقيني. وقد عبّر عن ذلك بقوله الشهير: "أنا أفكر، إذن أنا موجود". هذه العبارة، التي تستعيد صدى ما سبق أن طرحه ابن سينا في تأمله في الإدراك الذاتي، تحمل في طياتها تحوّلاً جذرياً في بنية الميتافيزيقا: لم يعد الوجود هو المنطلق الأول، بل أصبح الفكر هو الأساس. (سبيلا م. بنعبد العالي ب، 2001: 49)

إن اللحظة الديكارتية، كما تتجلى في "الكوجيطو"، تمثل انتقالاً من ميتافيزيقا الوجود إلى ميتافيزيقا الذاتية (Subjectivité)، حيث لم تعد الفلسفة تبدأ من التساؤل حول طبيعة الوجود بحد ذاته، بل من التساؤل حول الذات التي تفكر في الوجود. في هذا السياق، تصبح الذات هي المبدأ الأول للمعرفة، والمصدر الوحيد لليقين، حيث يستمد العالم الخارجي معقوليته من وعي الذات به.

في رسالته إلى بيكو، يصف ديكارت الفلسفة بأنها شجرة: جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزياء، وأغصانها العلوم التطبيقية. لكن السؤال الجوهرى الذي يطرح نفسه هنا: أين تضرب هذه الجذور؟ هل في العالم الخارجى أم فى الفكر؟

يبدو أن ديكارت يجيب بأن الأنا المفكرة هي الأرض التي تضرب فيها الفلسفة جذورها. فالميتافيزيقا، عنده، ليست تأملاً في الكائنات الخارجية بقدر ما هي تحليل للعقل البشرى وحدوده، باعتباره المصدر الأوحد لليقين. وهذا ما جعله يضع الفكر في صدارة الوجود: أنا موجود ما دمت أفكر، أي أن الوجود ذاته يصبح مشروطاً بفاعلية الفكر، وليس العكس. (هيدغر م، 2001: 77)

رغم الطابع التجديدي للميتافيزيقا الديكارتية، إلا أن بنيتها العميقة تحمل أصداً من الميراث الأفلاطونى. ففي محاضراته "نظرية أفلاطون عن الحقيقة"، يشير هيدغر إلى أن الفلسفة، منذ أفلاطون، اتخذت طابعاً ميتافيزيقياً، حيث تم إرجاع الحقيقة إلى نظام المعقولات،

وجعل الفكر سابقًا على الوجود. وهذا ما نجده عند ديكارت، الذي جعل الفكر هو الشرط الأساسي لإدراك الوجود، تمامًا كما جعل أفلاطون عالم المثل هو المبدأ الحقيقي للواقع.

لكن الفرق الجوهرى بينهما يكمن في أن أفلاطون كان ينطلق من تصور كوني للوجود، حيث تكون النفس متصلة بعالم المثل، في حين أن ديكارت جعل الوعي الذاتى نقطة الانطلاق، مفصلاً عن أي إطار ميتافيزيقي آخر، مما أدى إلى ميلاد النزعة الذاتية الحديثة.

لقد أحدثت اللحظة الديكارتية تحولاً جذرياً في بنية الفكر الفلسفي، حيث لم تعد الميتافيزيقا تهتم بالوجود في ذاته، بل بالذات المفكرة التي تعي هذا الوجود. (هيدغر م، 1977، 354) لكن هذا التحول، الذي بدا وكأنه تحرير للعقل، حمل في طياته إشكاليات جديدة، ستتطور لاحقاً مع كانط، وهيغل، وهيدغر، الذين رأوا أن تأسيس المعرفة على الذات يؤدي إلى عزلة الفكر عن الواقع، وإلى هيمنة النزعة الذاتية على الفلسفة الغربية. (طواع م، 2002: 131).

ج-ميتافيزيقا الوجود في الفلسفة المعاصرة: قراءة هيدغرية

إذا ما تأملنا طبيعة الميتافيزيقا من خلال تاريخها الطويل، نجد أنها كانت دائماً تسأل عن الوجود، لكنها في نفس الوقت ظلت أسيرة خلط مفاهيمي عميق بين "الوجود" و"الموجود" (هيدغر، 1977، 82). يشير هيدغر إلى أن الفكر الغربي لم يُفلح في التمييز بينهما، بل قام بتشويه الوجود، مختزلاً إياه في الموجودات. وعليه، فقد غابت عن

الميتافيزيقا ما يسميه هايدغر "الفرق الأنطولوجي (La Différence Ontologique) بين الوجود والموجود، بحيث أصبح سؤال الوجود محصوراً في ماهية الموجود ذاته، وكأن الميتافيزيقا لا تفكر إلا انطلاقاً من التصور المسبق للموجود، متجاهلة بذلك حقيقة الوجود ذاته). (Heidegger, 1971 : 171)

هذا الاختزال المفاهيمي للوجود تكرر عبر تاريخ الفلسفة في أشكال مختلفة، حيث تمّ ربطه تارة بالإله بوصفه "العلة الأولى" عند أرسطو والفلسفة الوسيطة، وتارة أخرى بوصفه "الشرط الترانسندنتالي لإمكان المعرفة" عند كانط، أو كـ "حركة جدلية" يتطور من خلالها الوعي المطلق عند هيغل، أو حتى كـ "إرادة القوة" عند نيتشه. في جميع هذه التصورات، لم يتم مساءلة الوجود بما هو كذلك، بل جرى إسقاطه على الموجودات ضمن منطق العلية والتفسير. وهو ما دفع هايدغر إلى الجزم بأن "الميتافيزيقا لم تجب أبداً عن السؤال المتعلق بحقيقة الوجود، لأنها ببساطة لم تطرحه أصلاً".

لكن ما الذي جعل الفكر الميتافيزيقي يعجز عن طرح هذا السؤال؟ يرى هايدغر أن الأمر مرتبط بجوهر الميتافيزيقا ذاته، الذي أسس النشاط الفكري وفق منطق صوري يعتمد على التحليل، والتجريد، والتعميم، والتركيب، وهي إجراءات تهدف إلى تحقيق يقين منطقي صارم. في هذا السياق، تمّ إقصاء الحواس والمخيلة، والنظر إلى كل ما هو شعري أو أسطوري بوصفه انحرافاً عن الحقيقة. وقد جسد

أرسطو هذا التوجه حين وضع "الأورغانون" ليكون معيارًا للعلم، مما جعل الحقيقة تُختزل في القياس المنطقي، وتنتقل من الفيزيس (Physis) إلى اللوغوس، حيث أصبح الفكر هو المأوى الوحيد للحقيقة. لكن هل يمكن اعتبار المنطق الوسيلة الوحيدة لبلوغ الحقيقة؟ هنا يقيم هيدغر تمييزًا جوهريًا بين نوعين من التفكير:

التفكير الميتافيزيقي: وهو التفكير التقليدي الذي يظل مشدودًا إلى الموجودات، ينشغل بآليات التفسير والتحليل، ويغفل عن مساءلة الوجود نفسه.

التفكير الأساسي: وهو التفكير الذي يسائل حقيقة الوجود، لا من منطلق المفاهيم الميتافيزيقية الجاهزة، بل عبر انفتاح جذري على تجربة الكينونة ذاتها. هذا التفكير لا يمكن اختزاله في أي "منطق" أو نسق صوري، لأنه يتجاوز كل أنماط الفكر التقليدي، محاولًا الإنصات إلى نداء الوجود بعيدًا عن التشويش الذي أحدثته الميتافيزيقا. (توفيق س، 2002: 18)

إذا كان هيدغر يدعو إلى تحرير الفكر من هيمنة الميتافيزيقا، فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: ماذا يبقى للفكر بعد تحرره من هذه الهيمنة؟ هل بإمكانه استعادة علاقة أصيلة مع الوجود، بحيث لا يكون مجرد تمثّل للموجودات، بل انفتاحًا على الكينونة بما هي كذلك؟

إن الدعوة الهيدغرية إلى التفكير في الوجود خارج أفق الميتافيزيقا ليست مجرد دعوة لتجاوز نسق فلسفي، بل هي محاولة لإعادة اكتشاف

المعنى المفقود للفكر نفسه، ذاك الفكر الذي لا يقيس الحقيقة بمنطق التطابق، وإنما يسائل الكينونة في أكثر مستوياتها أصالةً وانكشافاً. خاتمة:

إن الميتافيزيقا، كما تشكلت عبر تاريخ الفكر الغربي، قد بدأت منذ أفلاطون وأرسطو بوصفها بحثاً عن الأسس الجوهرية التي تمنح الموجودات كينونتها. وقد اتخذ هذا البحث منعً أنطولوجياً في الفلسفة اليونانية، حيث تمحور حول مفهوم "الماهية" و"العلة الأولى"، فانتهى إلى تصورات ثابتة للوجود اختزلته في مقولات منطقية وصورية. في العصور الوسيطة، استبدلت هذه الأسس بالمبدأ الإلهي، ليصبح الوجود مشروطاً بحضور المطلق المتسامي، في حين جاء ديكرت لاحقاً ليكرس القطيعة بين الفكر والوجود عبر تأسيس ميتافيزيقا ذاتية، حيث أعيد تعريف الكينونة انطلاقاً من الـ"أنا أفكر"، مما حوّل الوجود إلى موضوع لتمثل العقل.

في مواجهة هذا التراث، يرى هيدغر أن الميتافيزيقا، عبر كل تجلياتها، لم تفكر أبداً في الوجود بما هو كذلك، بل ظلت مشدودة إلى الموجود، مما أدى إلى طمس "الفرق الأنطولوجي" بينهما. لقد قامت الميتافيزيقا، في جوهرها، بتحويل الكينونة إلى موضوع للسيطرة والتحديد، سواء عبر المقولات المنطقية أو المفاهيم العلمية أو الأنساق الفلسفية. لكن هيدغر لا يكتفي بتفكيك هذا التراث، بل يدعو إلى مساءلة جديدة، حيث التفكير في الوجود لا يكون من خلال تعالي

المفاهيم، بل عبر تجربة أصيلة للكينونة، تجربة تتجاوز منطق التمثيل إلى الإنصات إلى نداء الوجود نفسه، حيث يفتح الفكر على أفق لا يمكن القبض عليه بمقولات العقل الصوري، بل بتجربة أصيلة تستعيد العلاقة المنسية بين الإنسان والكينونة.

الهوامش والمراجع:

المراجع:

- ابن رشد، (1967)، تفسير ما بعد الطبيعة، دار المشرق-بيروت.
- اميرة حلمي مطر، (1968)، الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية.
- جميل صليبا، (1982) المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني .
- سعيد توفيق، (2002)، في ماهية اللغة و فلسفة التأويل ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع ، الطبعة الأولى.
- عبدو الحلو، (1994)، معجم المصطلحات الفلسفية ، المركز التربوي للبحوث و الإنماء ، الطبعة الأولى .
- الفارابي، (1961)، فلسفة أرسطو، دار مجلة ثيوبورت
- لالاند (1996)، الموسوعة الفلسفية ، تعريب : خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات بيروت، المجلد الثاني ، الطبعة الأولى.
- مارتن هيدغر، (2001)، أصل العمل الفني، ترجمة: أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى.
- مارتن هيدغر، (1977)، نداء الحقيقة، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
- محمد سيلاو عبد السلام بنعبد العالي، (2001)، الفلسفة الحديثة- نصوص مختارة- أفريقيا الشرق.
- محمد طواع، (2002)، هيدغر والميتافيزيقا، أفريقيا الشرق.

Élie During , (1998), La Métaphysique, Flammarion, Paris.

Heidegger M, (1973), Qu'appelle-T-on-penser ? PUF..

Heidegger M, (1971), Nietzsche I, II , trad : Pierre Klossowski, Paris, Gallimard.

Heidegger: Kant et le problème de la Métaphysique , TEL Gallimard, 1953.

Heidegger: Questions II ,nrf,Gallimard,1968.